أبو عبد الله الشيعي

(حمامة المغرب)

• ابن البادية

كم بين ثنايا القرون من رجال طويت أجسادهم ولم تطو صحف أعمالهم وكم جادت الأيام برجال لا ينشرون إلا بعد أن تطويهم يد القدر، وذلك لأنهم يقومون بأعمال لا تروق بأعين المجموع لمخالفتها السياسية آنا والعادات والأخلاق أحيانا، إنما متى اختمرت وظهرت آثارها تعكف عليها الناس وقد لا يتم ذلك إلا بعد ورود القائمين لها حياض المنون، ومن الذين طوتهم الأيام ولم تقو على طي صفحات أعمالهم أبو عبد الله الشيعي قطب رحى روايتنا هذه.

في ظلام الليل

في ليلة من ليالي الشتاء وقد تكاثف السحاب فكسا الأفق ظلمات بعضها فوق بعض وخيم الهدوء والسكينة فوق مدينة (سجلماسة) [1] كان أمامة بنت اليسع بن مدرار (امير سجلماسة) تذهب وتجيء في غرفتها وقد شحب لونها وعلاها الهزال ثم تعود فتجلس إلى نافذة تطل على سهل فسيح وتصعد أنفاسها رجاء أن يساعدها الأفق بإرسال زفرة من كبده فتبرد لاعج وجدها، ولكن حتى الأفق بخل بما يفرج عنها إذ أن النسيم كان ساكناً في تلك الآونة وقد أوت الطيور إلى وكناتها وبينما هي في ظلمات الليل في ظلمات الغرام دخل أحد خدمهم يستأذن بإدخال رجل غريب فدخل ملتفاً بشملة تحيط به من منكبيه إلى ما فوق ركبتيه وعلى رأسه كوفية أرسل أطرافها إلى الوراء فلما وقعت عينها عليه

(١) سجلماسة: قاعدة إمارة بني المدرار في المغرب وقد دامت إمارة بني المدرار فيها ١٣٠ سنة.

عرفته وأشرق وجهها ثم قالت ما وراءك يا أغلب، فقال خيرا: ما عندك أنت يا سيدي، لا يزال أبي يشدد على الرجل ولم يترك وسيلة من الوسائل ليقف على حقيقة أمرة إلا توسل بها إلا أنه مع كل ذلك لم يقف منه على شيء وكل ما حمله على الاعتراف به هو أنه تاجر ولا علاقة له بأبي عبد الله إن مولاي (نصيراً) صرف أبا مضر (زيادة الله) عن النظر في أمر الرجل وحَسّن له اللهو ومما قاله له: ليست الحياة إلا حلماً فإذا لم يأخذ الإنسان حظه منها فماذا تجديه، فارتاحت أمامة وقالت: افهم مولاك (نصيراً) أن الأمور هنا جارية كما يجب فليعمل هناك واحمل له هذه الباقة من النرجس فعاد الرسول أدراجه في ثنيات الظلام.

أبو عبد الله الشيعي وسبب ذهابه إلى المغرب

هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي نشأ في صنعاء ولما بلغ أشده سار إلى ابن حوشب النجار في عدن فتقدم عنده لفهمه وعلمه وشدة دهائه ومكره، من الأمور المتفق عليها التي لا يختلف فيها اثنان أنه لابد لكل رجل عظيم يقوم بما يعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله ويتوصل إلى مستوى فوق المستوى البشري من خصوم يعملون على عرقلة سيره بل يناصبونه العداء المر ولما كان رسول الله (ص) أعظم من قام بأعمال عظيمة في هذا الوجود كان لابد من وجود من لا يناصبه العداوة بيد أن خصومه لما رأوا أنهم أعجز من أم ينالوا قضية بما يشينها سكتوا على مضض بل سكتوا أو بالعين قذى وبالحلق شجى إنما مافتأوا يتربصون بها الدوائر وتحريض أبي سفيان بن حرب أمير المؤمنين علياً عليه السلام بعد وفاة النبي(ص) ضرب من المكر للإيقاع بين المسلمين.

أجاب(ص) داعي ربه وقام بعده خلفاؤه وقضيته تزداد انتشاراً حتى اذا ظهر ابن حوشب النجار فالتزم الدعوة لآل محمد(ص) وكان أرسل إلى المغرب رجلين لبث هذه الدعوة الأول يعرف بالحلواني والآخر بأبي سفيان فذهبا فنزل أحدهما أرض كتامة ببلد يسمى (مرجنة) والآخر بسوق الحمار وأمالا فأما قلوب الناس إليها فحملت لهما الأموال وبعد أن مهدا هذا التمهيد توفيا في شهر واحد فرأى ابن حوشب بأبي عبد الله الرجل الذي يقوى على بث دعوتهم في بلاد المغرب فأرسله إلى أرض كتامة وقد زوده بالمال وأرسل معه عبد الله بن أبي ملاحف.

فسار أبو عبد الله متنكراً فأتى مكة في زمن الحج وسأل عن حجاج كتامة فأرشد إليهم فاجتمع بهم ثم اتخذ لنفسه مكاناً بالقرب منهم فسمعهم مرة يتحدثون بفضل أهل البيت (ع) فأظهر استحسان ذلك وأخذ يحدثهم بما لم يعلموه ولما أراد براحهم سألوه أن يزوروه فلم يمانع.

جرى كل ذلك و لم يعلموا قصده ثم سألوه بعد ذلك أين يقصد فقال مصر فسروا لأنه سيصحبهم مدة وكان مع حجاج كتامة رجلان من رؤسائهم وهما (حريث الحميلي) و(موسى ابن مكاد) وعند مغادرة الكتاميين مكة غادرها أبو عبد الله معهم وقد أظهر من الزهد والعبادة ما ملك قلوبهم به فازدادوا رغبة فيه ومحبة له وقاموا بكل خدمة تلزمه وكان في أثناء الطريق يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم وكيف طاعتهم وأنهم بعيدون عنه وسألهم أيضاً ان كانوا يحملون السلاح في بلادهم فأجابوه أن لا شغل لنا سواه و لم يزل يتعرف أحوالهم حتى أتوا مصر فلما أراد وداعهم طلبوا إليه إن كان يرضى بصحبتهم على أن يعرفون له حقه وما زالوا به فأقنعوه بالمسير معهم فسار فلما قربوا من بلادهم لقيم رجال من الشيعة فأخبروهم عنه فرغبوا إليه بالنزول عندهم فأبى وصحب الكتاميين إلى أرضهم فجاءوها في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ.

نصير

نصير هو أحد وزراء زيادة الله وأعظمهم رجال دولته بحيث لم يكن يصدر مليكه إلا عن رأيه ولا يرد إلا على إرادته وكان علوي الرأي، شغل أكبر مناصب دولة زيادة الله وهو شاب في مقتبل العمر غض الشباب وكان لذلك العهد غير متزوج و لم يقعده عن الزواج مع ما كان يحيط به من بنات الأمراء إلا تعلقه بأمامة.

كيف تحابا

إن تخوف أمراء إفريقيا من تفاقم أمر أبي عبد الله دعاهم لعقد خلف بينهم فانتدب زيادة الله –بصفته أكبر أمير افريقي– وزيره (نصيراً) لمفاوضة الأمراء بهذا الشأن فأظهر الاهتمام وذهب إلى (سجلماسة) على أن القصد الحقيقي من هذا الذهاب لم يكن إلا لرؤية أمامة التي كان ذكرها ملأ الأرجاء، فذهب وفاوض (اليسع) بالأمر وفي أثناء وجوده هناك تعرف إلى أمامة فعلقت بحبه ووقعت بحبالته وأفضة إليها –بعد أن استوثق منها– بما يكنه تجاه هذا الرجل فتعاهدا على خدمة قضيته.

بدء ظهور أبي عبد الله

لما وصل إلى أرض كتامة سألهم عن محل لم يكن سألهم عنه ولا هم ذكروه له وهو فج الأخيار: فعجبوا من معرفته له وقالوا هو عند بني سليان فقال اذهبوا بنا إليهم وبعد نزور كل قوم في ديارهم ففعلوا فأرضى بعمله هذا القوم بأسرهم ولما أتى فج الأخيار وكان يقع في جبل يقال له (انكجان) قال: هذا فج الأخيار وما سُمّي إلا بكم.

ولقد جاء في الآثار: :إن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان ينصره فيها الأخيار قوم مشتق اسمهم من الكتمان فإنهم كتامة وبخروجهم من هذا الفج يسمى فج الأخيار فسمعت القبائل بمقالته فعكفت عليه وحمته كتامة من كل عاد وكثيراً ما نشبت بسببه حروب بين الأفريقيتين وأخيراً اتصل بعظيم من عظماء كتامة يقال له الحسن بن هارون فذهب به إلى مدينة (ناصرون) وهناك توافدت عليه الخيل فأظهر أمره وشهر الحروب.

حاصر أبو عبد الله في مدينة ناصرون فقصدته قبائل البربر فجرى بينه وبينها حروب عديدة كان النصر فيها حليفه وظفر بالأموال فاستقامت له الأمور وخضع له البربر وعامة كتامة ولما تم له ذلك زحف إلى مدينة (ميله) فأتاه رجل اسمه الحسن بن أحمد فأطلعه على عزة فيها فافتتحها وأمن أهلها فكان لخبر انتصاره هذا دوي في افريقيا فأرسل أميرها وهو يومئذ إبراهيم بن أحمد ولده الأحول في اثني عشر ألفاً وتبعه مثلهم فالتقى بأبي عبد الله واقتتل العسكران فانهزم أبو عبد الله وكثر قتل في أصحابه فتبعه ابن إبراهيم ولكن لحسن حظ أبي عبد الله سقط ثلج عظيم فحال بين الجندين فرأى (أبو عبد الله) أن يرجع إلى جبل انكجان فعاد وبنى هناك دار هجرة فقصده أصحابه.

وعاد الأحول (ابن أمير افريقيا) فمر على مدينة ناصرون وعلى (ميله) فأحرقها.

ولما كانت الأيام تريد إظهار أمر هذا الرجل (ابي عبد الله) أخذت في مساعدته إذ لم يطل أمر إبراهيم بن أحمد (أمير افريقيا) بعد هذه الواقعة حتى توفي —وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه– ثم بعد وفاته بقليل قتل ولده أبو العباس فسّر أبو عبد الله بهذا الخبر وكان في عهد أبي العباس حارب أخاه الأحول الذي مر ذكره ثانية فكان النصر فيها حليفه.

بعد أن قتل أبو العباس بن إبراهيم وصار الأمر إلى زيادة الله وكان غراً انتشرت جيوش أبي عبد الله في البلاد وأخذينوه باسم المهدي ويقول أنه سيملك الأرض وطوبى لمن هاجر إلى وأطاعني وساعده على هذا الأمر وزراء زيادة الله بصرفهم وجهه عن الحرب وتدبير الملك إلى اللهو.

نصير وأمامة

أفريقيا ساحة حرب والإمارات على شفا جرف هار والأمراء لا تعي على شيء خوف تقلص ظلال الإمارات ونصير وأمامة تملات من خمرة الحب لا يهمهما إلا أمرهما ولا يهمها سوى مبادلة الرسائل وشكوى الجوى وبث الهيام وكانا إذا تراسلا وتخلل رسائلهما شيء من السياسية فما ذلك إلا لأنهما يريدان أن يدعما صرح غرامهما بدعامة من الملك ليكون متيناً.

أرادا توطيد أمر أبي عبد الله ليكوننا في هناء في مستقبل أيامهما: ولما كانت الرسائل لا تبل غلة النفوس ولا تروي أوام القلوب قررا أن يجتمعا.

توارت أم الوجود (الشمس) خلف حجاب الأفق وسدل الليل نقاب ظلامه ولم يعد يرى سوى أعين الكواكب تتطلع وأسراب الطير عائدة إلى وكناتها، في تلك الآونة والنسيم يهمس في آذان الرياض كان يتهامس نصير وأمامة، في روضة في منتصف الطريق كانا ضربا موعداً للاجتماع فيها يظلهما ظل الهناء ويغمرهما نور السرور وكادا يتجردان عن الحس لولا أن حفيف أوراق الشجر كان ينبههما من آونة لأخرى وذلك كلما جر النسيم العليل ذيوله في تلك الروضة.

وزاد في إشراق وجه أمامة في تلك الساعة ظهوره بين خمار وبرد أسودين وقد انبعث شعاع من عينيها ما هو إلا فيض تلك الآمال التي أفعمت قلبها، فأثر هذا المنظر في نفس نصير فصاح آه يا ملاكي.. أمن الأرض أنت أم من الخلد هبطت لا لا.. لا أصدق أنك من ذرية حواء.. لا لا ما أنت من البشر ما أنت إلا حوراء من حور الجنان يا معبودتي.. يا ملاكي.. آه لو يطول هذا الليل إلى آخر الأبد.. يا قاتل الله المانوية[1] كيف ينسبون الشر إلى الظلام وهو مصدر الخير وباعث السرور.. أن أخشى إلا من الصباح فإنه لا يعرف الرحمة، أجل يا أمامة إن الصبح لقاس فلا يرحم الوامقين:

ما لفنا ذيل الدجى إلا بنا ... عثر الصباح كأنه أهلوك

وإذا بوادي الطيف جمع شملنا ... رغماً يفرقه صياح الديك

(١) المانوية/ قوم يقولون أن الخير من النور والشر من الظلمة وقد قال المتنبي في ذلك:
فكم لظلام الليل عندي من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

وبعد أن قضينا لبانة الجوى قال نصير: أبلغك ما جرى مؤخراً من أمر أبي عبد الله فقالت لم أقف على تفاصيل الأمور فقال إليك خبره بحذافيره.

لما تم لهذا الرجل ما تم وظهر أمره واستولى على البلاد أوجسَ أبو مضر خيفة وحسب للأمر حسابه فجند جيشاً لجباً وفرق الأموال وولى القادة أحد أقاربه (إبراهيم بن خنيش) وقد حسنت له ذلك لعلمي أنه يجهل الحروب ولم يمارسها فسار على رأس أربعين ألفاً وتبعه مثل هذا العدد على أن الأمير (أبا مضر) لم يترك شجاعاً إلا أخرجه معه فتخوف أبو عبد الله العاقبة فتحصن في الجبل وأخذ بالمطاولة إلا أن إبراهيم لم يرق له هذا الأمر على أنه لو دام على الحصار قليلاً لضاق أبو عبد الله ذرعا.

فتقدم إبراهيم بعساكره زاحفاً إلى بلد اسمه (كرمه) فأخرج أبو عبد الله خيلاً لتقف على ما لديه من القوة وتتعرف نزوله فاستصغر إبراهيم أمر الخيل وشد عليها بنفسه منفرداً على أن أثقاله لم تحط ومازالت على ظهور الدواب فوصل الخبر إلى أبي عبد الله فزحف فوقعت الهزيمة على إبراهيم وقد جرح ثم انهزم جنده فتسلم أبو عبد الله الأثقال بأسرها وقتل من جند إبراهيم خلق لا يحصى فاهتزت القيروان لهذا الخبر واصبح اسم أبي عبد الله مقروناً بالتجلة والاعتبار. فقالت أمامة: إني عرفت جميع ذلك من الكتاب الذي رفعه أبو عبد الله إلى الرجل السجين ثم قالت كأني بهذا الرجل وقد خرج من السجن وعظم أمره وملك البلاد فما علينا إلا أن نعمل بكل ما لدينا من القوة على انتشار دعوته.

وأخذت العصافير تزقزق مؤذنة بقدوم الصباح وهب الصبا رقيقاً كالعاشقين ولكنه بدلاً من أن يبرد حرارة قلبيهما فقد أججها وذلك إذا كان نذير الفراق.

افترق الحبيبان وولى كل وجهه شطر مقره إلا أن الفراق كان جثمانياً إذ أن روحهما حلقتا في ذلك الفضاء واتحدتا وأعجبت أمامة بنصير أيما إعجاب فأكبرت أمره وكادت تحسد نفسها عليه وكذلك كان هو إذ شاهد فيها الامرأة الحقيقية من حيث الأخلاق العالية والصفات الحميدة والمميزات التي يندر وجودها في أنثى ولم يدر كيف قطع الطريق بل يمكن أنه لم يأبه لكل ما مر به ولم يشعر بشيء.

وصل إلى قادة رقادة[1] فوجد الاضطراب سائداً والخوف يظهر في الوجوه والناس تتهامس فأظهر كأنه لم يعلم شيئاً بعد وسأل ما الخبر فقيل له إن أبا عبد الله حاصر مدينة (طبنة) واستولى عليها بعد قتال شديد وحاصر مدينة (بلزمة) فاستعصت عليه كما

(١) رقادة عاصمة بني الأغلب اي عاصمة إمارة زيادة الله وقد دامت إمارة بني الأغلب ١١٢ سنة وزيادة الله آخر أمرائها.

استعصت سابقاً –إذ كان حاصرها مراراً– فرماها بالنار ونصب عليها الدبابات وأخيراً فتحها عنوة وحرقها بعد أن هدم الأسوار ومثل بأهلها ولذا ترى الأمير وسأله عمن يقود الحملة هذه المرة فقال: سيقودها رجل خبير بفنون الحرب فقال نصير أرى أن تولي القيادة هارون بن الطبغي فنزل زيادة الله على رأيه ولم يشر نصير بهذا الرأي إلا لعلمه أن هذا لا يصلح للقيادة فسار هارون وقد اجتمع معه خلق كثير علاوة على الاثني عشر ألفاً الذين جهزهم له الأمير فقصد مدينة دار ملوك لإطاعة أهلها لأبي عبد الله فقتل أهلها وهدم حصنها فلقيه في الطريق خيل لأبي عبد الله جاءت لاختبار جنده فلما رآها عسكره اضطرب وعقب الاضطراب ضجة عظيمة من جميع أنحاء العسكر ثم عقب ذلك انهزام فظيع.

جرى كل ذلك بدون قتال فظن أصحاب أبي عبد الله أنها مكيدة فتريثوا قليلاً عن السير بأثرهم ولما أكدوا أنها هزيمة حقيقية تتبعوهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم عدداً كثيراً وقتل (هارون) القائد مع من قتل وفتح أبو عبد الله مدينة (تيجس) صلحاً فتفاقم الخطب على زيادة الله فجهز جيشاً آخر وقاده بنفسه إلى (الأربس) وذلك سنة ٢٩٥.

فخاف نصير ومن يرى رأيه أن يولد وجوده على رأس الجند حماسة أو يوقع الرعب في نفوس أصحاب أبي عبد الله فصرفوه عن هذا الرأي بحجة أنه يغرر بنفسه وأنه إذا كانت الدائرة عليه لم يبق لهم ملجأ ثم قالوا ول القيادة من تثق به فإن خسر رجع إليك وإن فاز كنت من ورائه وصوبوا له أن يولي إبراهيم بن أبي الأغلب أحد أقاربه وكان شجاعاً –إلا أنه لا خبرة له– لولاه فبلغ أبا عبد الله ذلك فقصد (باغاية) إذ كان أهلها قدموا له طاعتهم فلما قدمها فرّ عاملها إلى (الأربس).

فأثار هذا الخبر غم زيادة الله فجاء نصير برجل مضحك فعمل ما أضحكه ثم قال يا مولاي عملت شعراً فاطلب من يلحنه واشرب عليها واترك هذا الحزن فجاء بالمغنين وأخذ يشرب على الغناء تاركاً أمر الملك كأنه لم يكن من يعمل على سلبه منه وكان المغنون يغنون جميعاً بعد الفراغ من الشعر هذا المقطع:

اشـــــــرب واســـــــقينا مـــــن القـــــرن يكفينـــــا

وانهمك في الطرب واللهو والمآكل والمشارب رغبة في استفحال أمر أبي عبد الله.

أمامة في الطريق

ومضت أمامة في طريقها وهي عائمة في يم من الهواجس وطرأ عليها فكر فجأة وقعت بسببه بين عاملين قويين عامل الحب وعامل مغالبته إذ تصورت إن هذا الرجل حقق أمانيه وانضوت إفريقيا تحت لواء ملكه وقضي على تلك الإمارات بما فيها إمارة والدها وعندئذ تمسي من السوقة فلا قصور فخمة ولا رياض غناء ولا وصائف ووصفاء.

كادت تقطع الطريق بل كانت طيلته وهذه الأفكار تتنازعها إلا أنها قالت لنترك العاطفتين عاطفة الحب وعاطفة التمتع بالإمارة ولنرجع إلى العقل لنرى إذا يدلي، يغري بهيف نصير ولحظاته الساحرة والإمارة تغري بالعظمة والبذخ والترف، فأت بما عندك يا من به شرف الإنسان فكرت ملياً وقالت إني وإن لم يكن أمل ببقائي على ما أنا عليه من العظمة –على أني آمل بدوامي أميرة باقتراني بأحد رجال الملك الذين لا يستغني عنهم في كل دور- يجب أن أعمل على تقويض هذه الإمارات المتعددة التي أصبحت ضرراً محضاً على المجموع لمناوئتها بعضها بعضاً ولأنها قوضت أركان الوحدة في المغرب وأن اجتهد في تأسيس دولة واحدة ذات قوة توجد فيها القوى المتفرقة فإن في هذا العمل خدمة لأمتي وإرضاء لضميري وقياماً بواجب يتحتم القيام به.

فارتاحت بعد أن خالجها هذه الأفكار ومضت تتلذذ بالآمال التي كانت تنتظرها وتصورت (نصيراً) وزيراً في الدولة الجديدة وبيده مقاليد الأمور والناس تزدحم ببابه فسكن جائش أفكارها وارتاحت مما كانت تعانيه إذ قالت لا ينقصني شيء من عز الإمارة فإني أكون كما أريد أن أكون.

(تبادل الرسائل)

كانت أمامة بعد وصولها إلى سجلماسة كتبت إلى نصير تبثه لاعج جواها وقد عرضت له بما دار في خلدها وخالجها من الأفكار ومما كتبت له:

بينما أكون مغمورة بنور الآمال الذهبية مستأثرة لتينك العينين السوداوين النظرات لتلك الظلمة التي تتموج فيها إذا ما رأى صاحبها من ينازعه سلطته في شيء يود امتلاكه، لذلك اللطف الممزوج بالإباء الذي ينفذ به صاحبه لكل قلب فيمتلكه بينما أكون كذلك يبرز من وراء حجب التفكير فكر يرفل في برد الآلام القاتمة يلوح عليه بريق من مجد الماضي فيكاد يزحزحني عن عقيدتي الأخيرة التي وقفت لها ما بقي من الحياة أما نفسي فلا تزل طائرة في فضاء الأماني وجناحها الحب والأمل فليس لي أحدثك عنها وكيف أحدثك عن شيء لا أملك منه شيئاً بل هو بكلتيه لك (أمامة).

لا تتقهقري أمام الواجب

يا أمامة: لابد بلغك أن أمر الرجل استفحل فطمأني السجين[١] أبو مضر قبع بين المقاصير متلهياً بالغناء والعزف لا يأبه لشيء ولا يريد إلا أن تتلذذ حيوانيته أما نفسه فلا أجدها تتألم حتى كأنه ليس بذي نفس وهذا ما ساعدني على تطبيق الخطة التي رسمناها وإليك ما حدث مؤخراً:

لما رأى أبو عبد الله أن زيادة الله انصرف عن النظر بأمر الملك إلى الطرب والإنهماك بالملذات الجثمانية وعرف دخيلة البطانة سَيّر جيشاً إلى مدينة (مجانة) فافتتحها وقتل عاملها ثم أرسل خيلاً إلى مدينة (نيفاش) فملكها وأمن أهلها ومذ ذاعت أخبار انتصاراته قصده جماعة من رؤساء القبائل يطلبون أمانه فأمنهم ثم سار بنفسه إلى (مسكيانه) (فتبه) ثم إلى (مدبرة) فوجد فيها أهل قصر الافريقي وأهل مدينة (مرمجنة) و(مجانة) وأخلاطاً من الناس وكانت حصينة فنزل عليها وقاتلها وأخيراً فتحت له أبوابها ولما تم له ذلك سار فنزل على القصرين من (قمودة) فطلب أهلها الأمان فأمنهم.

وبلغ إبراهيم بن الأغلب قائد الحملة المتقهقرة المرابطة بالأربس أن عبد الله يريد أن يقصد زيادة الله فخرج إلى(دردمين) ولا أدري ما جد بعد ذلك إذ للآن لم تأت العيون، شطح القلم وشغلته السياسة عن التحدث بشيء من غرامنا.. آه يا أمامة: إن امتزاج النظرات يوم اللقاء كان يولد مرارة في أعماق النفس ولو سئلت عما تركت تلك المرارة في نفسي لأجبت أنها تركت ارتياحاً وولدت لذة وقد تترك انفعالاً ضعيفاً تبدو بوادره في الوجه ثم تتلاشى بسرعة في أعماق النفس كيما يثور ذلك الانفعال عندما يبلغ الدرجة التي يدرك بها معنى ذلك الارتباط لولا أنه يغمر نفسي أحياناً شعاع من الأمل ويهب في حنياتها نسيم المنى اللذيذ لكانت تلك العاصفة تحولت إلى بركان إذا ما انفجر حطم قرارة القلب وترك حقل الحياة قاحلاً جافاً، ولا أكتمك أن أهازيج الصباح وترنيمة النسيم في معبد الحياة يهونان علي ما ألافي كما أن الأزهار ولا سيما الأبيض والأحمر منها تخفف بعض ما أعاني واعلمي أن للأحلام بداً لا تجحد (نصير).

وكانت أمامة تنتظر الأخبار وتتنسمها بالدقيقة لأن والدها شدد على السجين فخشيت أن يظهر أمره ويصاب بشر فتذهب أحلامها أدراج الرياح، مضى عليها مدة وهي كذلك فسئمت الصبر وخرجت في بعض الليالي لترويح النفس وهي تقول لم يعد

(١) السجين هو المهدي الذي كان يدعو إليه أبو عبد الله وهو نفسه مؤسس الدولة الفاطمية بمصر.

بالوسع احتمال هذا الهجر آه ما أقساه وفيما هي كذلك رأت قادماً فتوسمت خيراً فلما دنا ذلك الآتي منها فعرفته. أغلب. قالت بدون رشد فتقدم منها وبعد التحية دفع إليها الرسالة فأثلج فؤادها وقفلت نحو الدار وأغلب معها تسأله من آونة لأخرى عما يعن لها فلما أتت دارها كتبت له: مليكي —آه لو تراني اليوم يا مليكي وقد ظهرت الغضون في وجهي أجل لو تراني لرثيت لي وبكيت وليس مر السنين الذي حفر في وجهي تلك الغضون إذ لم أذرف بعد على ما يخدد أسارير الوجه من السنين وإنما ذلك أثر من آثار ألم النفس التي ضاقت ذرعاً من هجرك يا مالك الروح.

أكثر ما سرني في رسالتك فصلها الأخير الذي صور لي عاطفتك. أما ما جاء في أولها فهو أثر من آثار نفسك الكبيرة لا تطل بعد اليوم هجري فإنك بذلك تبعثني إلى المقابر. الإمضاء: أمامة.

ختمت الرسالة ودفعتها إلى أغلب وزودته بكل ما لديها من العواطف فعاد أدراجه. وطفق نصير يداعب زيادة الله مرة ويمنّيه بالفوز ثانية ويصغر أمر أبي عبد الله عنده ثالثة حتى صرفه بالمرة عن التأمل في مستقبل أمرة وجاءته رسالة أمامة فشجعته ونفخت فيه قوة لم يكن يشعر بها من قبل.

الوقعة الفاصلة

وبلغ أبا عبد الله أن إبراهيم بن الأغلب نزل (دردمين) فسيّر إليها سرية فاشتبكت مع جيش إبراهيم فغلبت وانهزمت وكان أبو عبد الله استبطأها فسار يقتفي أثرها بجميع ما لديه من الجند فالتقى بالمنهزمين وقتلوا جماعة من جنده وحجز بينهم الليل.

وذهب أبو عبد الله إلى (قسطليه) فحصرها فطلب أهلها الأمان بعد مقاومة رأوا أنها لم تجدهم فأمنهم واستولى على ما كان فيها لزيادة الله من الأموال والعدد ومنها تقدم إلى (قفصه) فقدمت له الطاعة دون أن تقاوم فرجع بعدئذ إلى (باغاية) فترك فيها حامية وقصد جبل (انكجان) فسار إبراهيم بن الأغلب إلى (باغاية) وحصرها فبلغ أبا عبد الله ذلك فجمع ما لديه من الجند وجد نحوها بعد أن قدم بين يديه اثني عشر ألفاً أمرهم أن كان إبراهيم رحل عن (باغاية) أن لا يتجاوزوا فج العرعار.. وصبر أهل (باغاية) على حصار إبراهيم لهم وقاتلوه قتالاً شديداً فأعجب بصبرهم وثباتهم ووقع الرعب في قلوب جنده وزاده فرقاً قرب نجدة أبي عبد الله فرحل قاصداً الأربس.

نصير يبشر أمامة فالفتح

يا مليكتي: عجباً للقلب صغير الحجم كبير العقل يحمل بين ثناياه الألم والسرور والفرح والكدر، التعب والراحة وذا هو مفعم بالسرور والأسى معاً مفعم بالسرور لانتصارات أبي عبد الله وبالأسى لبعده عنك لم أجد ما يجمع النقيضين سواه، كلما أرخى الليل سدوله، أجلس إلى نافذة تطل على إحدى الرياض وأتذكر اللقاء فيزداد خفقان فؤادي أريد أن أتحدث إليك عن الحالة العمومية بعد فوز أبي عبد الله وعن آخر الوقائع الحربية. بعد أن دحرت جيوش أبي عبد الله إبراهيم بن الأغلب طاب الزمان لأبي عبد الله وسالمته الأيام فجمع عساكره فبلغت مائتي ألف بين فارس وراجل.

أبو عبد الله ينثل آخر سهم في كنانته

بلغ زيادة الله ما صار إليه أمر أبي عبد الله فسيّر إليه مع إبراهيم مالا يحصى من الجند فالتقوا أول جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ فاقتتلوا أشد قتال وكاد إبراهيم يظهر على أبي عبد الله لولا أن هذا اختار من أصحابه ستمائة رجل وأمرهم أن يأتوا أصحاب زيادة الله من الوراء فمضوا لما أمرهم به واتفق أن إبراهيم أرسل كذلك رجالاً لتأتي من خلف عسكر أبي الله فالتقى الكمينان في مضيق هناك واقتتلوا فانهزم أصحاب إبراهيم وشيعهم أصحاب أبي عبد الله فأتوا من وراء جند إبراهيم فوقع الرعب في صفوفه وظنوا أنّ أبا عبد الله جاءهم من ورائهم فانهزموا لا يلوون على شيء وتفرقوا فذهب كل أمير إلى جهة فكانت وجهة إبراهيم ومن معه القيروان كل ذلك ورجال أبي عبد الله تتبعهم وقد أوسعوهم قتلاً وتشريداً وربحوا من الخيل والأموال والعدد مالا يحصى.

وفتح أبو عبد الله (الأربس) التي كانت معقلاً لإبراهيم ثم توجه إلى قمودة وبلغ أبا مضر خبر الهزيمة ففر إلى الديار المصرية وقد تخلى عنه أولئك الذين كانوا يظهرون له غير ما كانوا يبطنون ولما فرَّ زيادة فر أهل رقادة (العاصمة) إلى سوسة والقيروان فجاء أهل القيروان (رقادة) وقد خلت فنهبوها.

الحالة العمومية

أصبحت حالة الحكومة بعد فرار زيادة الله فوضى فالتهم القوي الضعيف ونهبت قصور بني الأغلب إذ بقيت ستة أيام مباحة للرائح والغادي كل ذلك قبل أن يصل أبو عبد الله ويضبط الأحكام ولا غرو فإن كل انقلاب لابد أن تسود فيه الفوضى مدة ما ولما جاء إبراهيم بن الأغلب القيروان نادى مناديه بالأمان ونزل قصر الإمارة وأخذ يعمل على جر

النار لقرصيه أي أخذ يذم زيادة الله ويرميه بوهن العزيمة وضعف الرأي ثم يعود فيصغر امر أبي عبد الله ويعظم أمر نفسه ووعدهم بأنه يدافع عنهم إلى آخر نسمة من حياته وطلب منهم المساعدة والإمداد بالرجال والمال فقالوا إنما نحن فقهاء وعامة وتجار لا رجال حرب وما ذلك إلا لأنهم استصغروا أمره وعرفوا أن لا طاقة له بأبي عبد الله ولا قِبلَ له بجنوده.

وأخيراً خرجوا من عنده وحرّضوا عليه السواد فصاحوا به أن أخرج من بين أظهرنا فما لك عندنا سمع ولا طاعة فخرج وهم يرجمونه، وبلغ أبا عبد الله هرب أبي مضر فقصد (رقادة) وقد قدم بين يديه قائدين من قواده ومعهما ألف فارس فأتوا (رقادة) فوجدوا الناس تنهب ما بقي فنادى المنادي بالأمان وترك لكل امرئ ما حمل.

وقبل أن يأتي أبو عبد الله (رقادة) مَرَّ بالقيروان فخرج الفقهاء والوجوه للقائد وهنأوه بالفتح فاستقبلهم استقبالاً حسناً ثم شرعوا يذمون زيادة الله ويذكرون مساويه قلم فلم يرق لأبي عبد الله ذلك وقال: ما كان إلا قوياً وله منعة ودولة شامخة وما قصرَّ في مدافعته ولكن أمر الله لا يعاند ولا يدافع فأمسك القوم عن الكلام ثم رحل إلى رقادة فدخلها يوم السبت مستهل رجب سنة ٢٩٦ ففرق الدور عن كتامه وجعلها عدته ودرءه وأمن الناس وأرجع النازحين ثم استعمل العمال على البلاد وجمع ما كان لزيادة الله من المال والسلاح إلى غير ذلك فاجتمع لديه شيء كثير مع كثير من الجواري، وضرب السكة منقوشاً على أحد وجهيها (بلغت حجة الله) وعلى الوجه الآخر (تفرق أعداء الله) ونقش على السلاح (عدة في سبيل الله) ووسم الخيل على أفخاذها (الملك لله) وأقام على ما كان عليه من لبس الخشن وأكل الغليظ من الطعام: هذه أخبار الفاتح الجديد الذي يمني الناس بالفرج وسأوافيك بما يكون اجتهدي أن يكون السجين أميناً على حياته فإنه هو على ما شممت من شمائل أبي عبد الله الرجل المنتظر فعسى أن يضيء الله علينا بسببه ونقضي لبانات نفوسنا يا مليكة (نصير). تلقت أمامة كتاب نصير وطالعته فانتشرت في أفق وجهها سحابة غم لم تقو على تبديلها بكل ما منّت نفسها به ذلك لأنها شعرت بوحشة. شعرت بزوال الملك فهمت بإغراء والدها بقتل السجين وخرجت من دارها قاصدة ذلك إلا أن شيئاً متغلغلاً في أعماق القلب وقرارة النفس ثار ثائره ووقف في سبيلها وصدها، فما هو ذاك إلا الحبّ الذي توارى في ثنيات الحشا وطيات الفؤاد توارى ليرى إن كان للعقل يقوى على قيادة العاطفة تكاد تظفر بالعقل هبّ من مكمنه وأرجعها مرغمة قبل أن تختار نصف الطريق إذ اصطنع لها من فكره وحدة الأمة بلسماً شفي به جراح نفسها فكان خير دواء ناجع.

فاطمأنت وسري عنها بعض ما كان فيه من أثر للسعادة التي تنشدها تسلك بين شعابه وثناياه وهاجمها الحب فتقهقرت أمام قوته وتلاشت تلك الأفكار كما تتلاشى سحابة الصيف وعندئذ رجعت أدراجها وهكذا انتهت دولة بني الأغلب ودولة بني مدرار ودولة بني رستم ووحدت تلك الدويلات في دولة أبي عبد الله التي سلّمها إلى المهدي العلوي (مؤسس الدولة الفاطمية).

السياسة

الله الله من السياسة وتقلباتها.. الله الله من السياسة وخداعها.. الله من أمر لا يعرف غير المصلحة ولا يبرر إلا الغاية وهذه صفحات التاريخ أكثر ما تنطوي على ما يدعم هذا القول بالبرهان القطعي والدليل المقنع.

السياسة لغة الرياضة والتأديب وعُرفاً هي العمل على استصلاح بني الإنسان بإرشادهم إلى طريق النجاة عاجلاً أو آجلاً أو تدبير المعاش مع المجتمع على سنن العدل والاستقامة ولكن..؟

ولكن حوّلها أصحاب المطامع عن معناها الحقيقي فأخذوا يعدون التمويه والتدجيل والمكر والخداع من ضروبها الأمر الذي تأباه العدالة والشرف، الغدر بات من قواعدها الأساسية والخلف دعامتها التي تقوم عليها والروغان نقطة دائرتها، وهذا أبو عبد الله الشيعي شاهد عدل على أن الساسة لا يعرفون الوفاء، جاب الآفاق من الشرق إلى الغرب فسلك معارج الخطر وجابه المنية مراراً وبذل كل ما في وسعه لتأييد دعوة المهدي فمهّد له الأمور وذلل له الرقاب وأوطأه القبائل وطوع له البلاد وسلمه زمام الملك طائعاً وأخيراً كان جزاؤه القتل فهل في رجالنا من يسمع فيتأكد أن كل ما يراه من بشاشة السائس تزلف له الغاية في نفس يعقوب وأنه لا يرضى عنه إلا إذا احتيج إليه في تنفيذ غاية أو نيل مأرب.

(فاجعة) لما فتح الله على أبي عبد الله (سجلماسة) فرَّ اليسع فاتبعوا به من اقتفى فأتى به فقتلوه دون أن يرى منهم رحمة و لم يشفع به لديهم جهاد ابنته فعظم ذلك عليها ولولا أن فكرة توحيد البلاد كانت تهون عليها ما تلاقي لقتلت نفسها أو كانت قلبت لهم ظهر المجن وسعت بتقويض دعائم تلك الحكومة التي بنيت على أنقاض تلك الإمارات. وصفا الوقت ودانت الأمور للمهدي ومذ تم تمهيد ما يلزم تمهيده خطب نصير أمامة وعاشا في هناء أنساها هناء الإمارة وعز الملك وعظمة السلطان.